

**ملخص:**

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة قضية مهمة في فكر "عبد السلام بنعبد العالي"، وهي آفاق الفكر الفلسفي بالمغرب من خلال تقصي وتتبع الانتاج الفلسفي في المغرب العربي وفحص سيرورته وتقويمها، خاصة في ظل الصيحات التي تُنكر وجود فكر فلسفي في البيئة المغاربية، وأن جميع ما يُتداول فيها من قضايا وموضوعات لا يعدو أن يكون مجرد أفكار أكاديمية هي حيسة المؤسسات التعليمية، أو هي عبارة عن ترجمات وشروح لما تُنتجه الفلسفة الغربية، أمام هذه المشكلة - الأزمة نستحضر السؤال التالي: هل يوجد فكر فلسفي في المغرب العربي؟ وإذا كانت الإجابة بـ "نعم"، فما هي دلالات حضور ذلك الفكر؟ وما هي آفاقه؟ وقد تمّ التوصل إلى حقيقة وجود فكر فلسفي بالمغرب من خلال العودة إلى التراث لا من أجل الذوبان فيه بل لتفعيله وجعله معاصراً لأفقنا الراهن.

كلمات مفتاحية: التراث، الهوية، الاختلاف، الاتصال، الانفصال.

**Abstract:**

This study aims to address an important issue in thought. "Abdessalam Benabdelali" which is the horizons of philosophical thought in the Arab Maghreb by exploring, tracking, examining and rectifying the philosophical production in the Arabian Maghreb, especially in the light of cries that deny the existence of philosophical thought in the Moroccan environment, and that all the issues and topics on which it is circulating are merely academic ideas that are trapped in educational institutions, or are translations and explanations of what Western philosophy produces. Is there any philosophical thought in the Maghreb? And if the answer is "yes" what are the connotations of that thought? What are his horizons?

The fact that there is a philosophical thought in the Arabian Maghreb has been reached by returning to heritage, not to dissolve it, but to activate it and make it a contemporary of our current horizons.

**Keywords:** Heritage, identity, difference, communication, separation

**عبد السلام بنعبد العالي وآفاق****الفكر الفلسفي في المغرب****العربي**

Abdessalam Benabdelali and the  
horizons of philosophical thought  
in the Arab Maghreb

د - جواق سمير\*

جامعة عبد الحميد مهري -

قسنطينة 2- (الجزائر)

philo.samirdjouak@gmail.com

## 1- على سبيل الافتتاح، أو في ضرورة "ثقافة السؤال"

يُعد الباحث والمُفكر المغربي "عبد السلام بنعبد العالي"، اليوم من أهم مُفكرَي العرب المعاصرين وأكثرهم شأنًا على وجه الإطلاق، سواء بقوة تدخله في القضايا التي تهم الفلسفة العربية، من قبيل: التراث، الحداثة، التقليد، الهوية، والتقنية، .. الخ، وهي جملة القضايا التي تحملها عناوين كُتبه المختلفة، أو من خلال الترجمات التي أنجزها على مدار سنوات تكوينه المعرفي الرزني، الذي يجمع بين الفلسفة العربية/الإسلامية التراثية والمعاصرة، والفلسفة الغربية الحديثة والراهنة، هذا الجمع بين المرجعيات العربية والغربية، نابع من قناعة "بنعبد العالي" الفكرية، بأن "الثقافة تفاعل مع الواقع والآخر والذات"<sup>1</sup>، وهي الاستراتيجية الناجعة، في أعين هذا المفكر، من أجل تشييد "ثقافة السؤال"، التي بإمكانها أن تُخرج العقل العربي من "الاستنساخ والتكرار والاجترار"<sup>2</sup>، كما يُعد أيضاً المدخل الرئيس لسعيه الحثيث إلى مقارنة سؤال الإبداع في القول الفلسفي العربي، ومن ثمة مقارنة السؤال الأهم؛ الذي يؤكد أو ينفي وجود فكر فلسفي عربي، خصوصاً في البيئة المغاربية، وفعلاً فهل ما تم تداوله في القول الفلسفي العربي هو استمرارٌ للقضايا التراثية أم هو محاكاة لما هو موجودٌ في الفلسفة الغربية؟، خصوصاً وأن هذا الباحث المغربي قد تفتّن إلى أن العقل العربي يُسارع دائماً في الحديث عما أُستجد في الخطاب الفلسفي الغربي، من مفاهيم وموضوعات وقضايا، كمسألة الحداثة وما بعد الحداثة، التي "أصبحنا ننشغل بالتنظير لها والتغني بها"<sup>3</sup>، عوضاً مُساءلتها والبحث فيها أو عوض الاهتمام بالموضوعات التي تخص الشأن الفكري العربي. ومنه فلا غرابة من أن نجد مُفكرنا المغربي "عبد السلام بنعبد العالي"، يعود مُجدداً للحديث عن "دور الفلسفة اليوم"<sup>4</sup>، وأيُّ وظيفة يُمكن أن تُعزى لها في ظل ما يسري من أحداثٍ وتفاعلاتٍ ومُتغيراتٍ ثقافية وفكرية وسياسية راهنة، بل إن هذا المُفكر ما فتئ يؤكد على أنه لا يمكن، بأي حالٍ من الأحوال "أن نتحدث في الفلسفة وعنّها، من غير الحديث عن كلّ هته الأمو"<sup>5</sup>، هذا التأكيد يُوشي حرصه الشديد وهاجسه القلق في

وصّل الفكر بالواقع، والنظري بالعمل، وهو سعي فكري ورثه هذا الباحث المغربي من اشتغالاته الفكرية المتنوعة على المتون الفلسفية الرصينة، ومن التقليد الفلسفي الذي ينظر إلى الفلسفة بوصفها فعل "مقاومة"، من خلال سؤالها النقدي، الذي ما من مسألة إلا وأتى بها على طاولة الشك والمساءلة والنقد والتفكيك، إن رؤية "بنعبد العالي" للفلسفة لا تخرج عن سياق هذا الفهم، إذ يقول في هذا الصدد: "الفلسفة إذاً مقاومة تعمل في جبهاتٍ مُتعددة، أي تعمل ضد كل ما من شأنه أن يكرس الامتلاء والتطابق والتقليد"<sup>6</sup>.

واذ ما أردنا التفصيل أكثر، فيمكن القول، أن الفلسفة - في أعين "عبد السلام بنعبد العالي" - ترفع شعارات المقاومة في جبهاتٍ مُتعددة؛ سيكولوجياً واجتماعياً وايدولوجياً وزمانياً، فهي تقاوم "سيكولوجياً الاجترار والتكرار، واجتماعياً الرتبة والروتين، وايدولوجياً الدوكسا وبادئ الرأي، وزمانياً التقليد والماضي الجاثم، وأنطولوجياً التطابق والوحدة"<sup>7</sup>.

أمام هذا الموقف النقدي لدور الفلسفة، يُستحسن بنا الإشارة هنا إلى ملاحظة هي على قدر كبير من الأهمية، وهي امتعاض هذا المُفكر من بعض المقاربات الفلسفية التي تسعى إلى تقديس الماضي/التراث وتطبيقه على الوضع الراهن، خصوصاً وأن فهمه لفلسفة يأتي "كممارسة للانفصال"<sup>8</sup>، أي الانفصال عن الماضي والتحرر من التراث والابتعاد عن القوالب الجاهزة التي من شأنها أن تُعيق الفكر العربي عن التقدم والتحديث وعن مُسايرة ما أُستجد من قضايا ومفاهيم وموضوعات، وعليه تُصبح "الفلسفة سعيًا وراء أحداث الفجوات في ما يبدو متصلاً، وخلق الفراغ في ما يبدو مُمتلئاً، وزرع الشك في ما يبدو بديهياً، وبعث روح التحديث في ما يعمل تقليداً، وتوليد البارادوكس في ما يعمل دوكسا"<sup>9</sup>، غير أن ما يُمكن التنبيه إليه في هذا الصدد، أن "بنعبد العالي"، ليس ضد التراث، كما أنه لا يدعو إلى إحداث قطيعة معه، والتخلي عنه جملةً وتفصيلاً، بل إنه يحرص شديد الحرص على "مساءلته"، ومن خلال هذه الامكانية/الفضيلة الفلسفية وحدها، يمكن فرز ما يشوي داخل

ذلك التراث؛ بين ما يُمكن الاحتفاظ به وما لا حاجة لنا به فتتخلّى عنه، وعلى ضوء ذلك "تغدو الفلسفة مقاومة للماضي الجاثم، مقاومة للتقليد لبعث تراث حي، إنها انفصال عن الرؤى التي تسعى أن تكلس التراث عندما تسجنه داخل قوالب جاهزة وتخطه بفعل تأويلات نهائية مغلقة على ذاتها"<sup>10</sup>.

ومن ثمة، فلا غرابة من أن يؤكد هذا المفكر المغربي على ضرورة التحلي بـ "ثقافة السؤال"، هذا التأكيد الذي نجده ثابواً في أكثر من موضع داخل مؤلفاته المتنوعة والمتعددة، وهي الثقافة التي بمقتضاها ستنمكّن من أحداث قطيعة "عمّا ترسخ من مفهومات وما استقر من عادات"<sup>11</sup>، وهو ما من شأنه أن يُسهّم عظيم الإسهام في انفتاح الوعي على "تيارات فكرية مُحدّدة كان من شأنها أن تُحوّل مفهوم الثقافة ذاته وتبدّل دورها في تغيير الذهنيات وتكوين أفراد قادرين على التفاعل الناضج مع مُستجدات الواقع وتغيّرات التاريخ"<sup>12</sup>، كما أكد من جهة أخرى، على ضرورة أن تُطال "ثقافة السؤال" كلّ القضايا والموضوعات، لذلك ينبغي أن "نتساءل عن الحداثة وعمّا قبلها وما بعدها"<sup>13</sup>.

وفي الأخير يُمكن القول، إنَّ الأهمية القصوى لـ "ثقافة السؤال"، في أعين "بنعبد العالي"، تكمن في أنها "ثقافة لا تستنسخ النماذج أياً كان مصدرها ومهما ترسخت جذورها"<sup>14</sup>، إذ أنها تستحضر كلّ القضايا والنماذج والمفاهيم على طاولة المساءلة والنقد، وهو ما من شأنه أن يدفع الفكر العربي إلى فعل المجاوزة وفضيلة السير قدماً نحو الأمام، واختباره "إذا هذا الفكر يحيا بالفعل، أي يموت، مادامت حياة الفكر، كما يقول "هيجل"، هي موته وعدم خلوده إلى التطابق، وبناء الوحدات لخلق الفوارق وتعدد الهوية وهدم الأوثان"<sup>15</sup>.

إذن، تُعنى هذه الدراسة، - كما هو واضح من عنوانها -، بتقصي وجود فكر فلسفي في البيئة المغاربية من عدمه، وبـ "الضبط عمّا إذا كانت هناك حياة فكرية فلسفية عندنا"<sup>16</sup>، بيد أن هناك العديد من العوائق المنهجية والمعرفية، التي تُصادف الباحث/المنشغل في ذاك السؤال، وهي العوائق التي نبه إليها هذا المفكر المغربي، من قبيل: هل نتبع ذلك الإنتاج من حيث هو مذاهب وتيارات؟ أم من حيث هو مسائل وموضوعات؟ أم

من حيث المفاهيم والأفكار؟ أم من خلال الترجمة وما يتم تأليفه؟

وحقيق بالذكر ههنا، أن قراءة مُفكرنا للإنتاج الفلسفي بالمغرب انصبّ على المفاهيم، بعد أن تبين له أن الفكر الفلسفي الآن لا يهتم بموضوعات بعينها بقدر ما ينشغل بنفسه ويبحث عن أصوله وكيفية نشأتها، وهي حركة ترمي إلى مُراجعة المفاهيم الفلسفية وإعادة النظر فيها، فضلاً عن ذلك إن قراءة تاريخ الأفكار والمفاهيم ومُحاورتها تُفضي بنا إلى أمرين أساسيين: إما تجاوزه أو امتلاكه وجعله مُعاصراً، ولعل هذا ما يُفسر تلك الأهمية الكبيرة التي حظي بها مفهوم التراث وما يُناخه من مقولات ومفاهيم كالهوية والخصوصية والاختلاف... الخ.

## 2- الفضاء الفكري المغربي بين غياب الفلسفة ووجودها

يفتح "عبد السلام بنعبد العالي" دراسته الموسومة بـ "التراث والهوية، دراسة في الفكر الفلسفي في المغرب"، بالتساؤل عما إذا كانت هناك حياة فلسفية في المغرب؟ وما إذا كان هذا الفكر يحيا بالفعل أي يموت، ما دامت حياة الفكر - كما نهبنا إلى ذلك "هيجل" - هي فناؤه وعدم ركونه إلى التطابق وبناء التماثل؟ يلحق هذا التساؤل بتساؤل آخر حول طريقة تقصي وتتبع ذلك الفكر، يُجيبنا صاحبنا ههنا بقوله: "لن نتقصي الفكر الفلسفي من منظور الوحدة، ولا من حيث هو تيارات سارية أو مذاهب مفترضة أو منظومات مغلقة، وإنما سنرصده في تعدده واختلافه عسى أن نُبلور مخاضه وحركته"<sup>17</sup>.

لا مُشاحة، أن مضمون ذلك التقصي لم يأت نتيجة ترفٍ فكري أو تأمل نظري فارغ من أي مقصد، بل بعد أن تبين لـ "بنعبد العالي" أننا نلغي عندنا "مفكرين أقرب إلى الفلسفة لا يكتبون فيما عهدنا أن نُطلق عليه مؤلفات فلسفية مثل "الخطيبي"، الذي يُصرح أنه يكتب على هامش الفلسفة، و"العروي" الذي يُوظف مفاهيم فلسفية ويتغذى من منابعها ويرفض صراحة أن يُلقب فيلسوفاً فيميز بين اجتماعيات الثقافة وبين ما يُطلق عليه الاغراق في التأمل النظري"<sup>18</sup>.

كما يرفض صاحبنا ههنا تقصي مسالك وجود فكر فلسفي في البيئة المغاربية عبر حصر المؤلفات والمواضيع الفلسفية، ذلك أن "الظاهر أيضاً أن لا اهتمام عندنا بما عهد أن يُسمى

بهما من مفاهيم إبستمولوجية كالعقلانية والموضوعية والاشكالية والقطيعة<sup>21</sup>.

وحقيق بالذكر ههنا، أنّ المفاهيم المتداولة عندنا ولعن رامت إلى إعادة قراءة برنامج التراث وتأويله من جديد، تأويلاً يحوز على تطلعات أفقنا الراهن، فإنّ "عبد السلام بنعبد العالي" يرجع هذه المفاهيم على اختلافها وتعددتها إلى ثلاث موارد أساسية هي: التاريخ، الهوية والأيدولوجيا، فـ "مفهوم التاريخ وما يرتبط به من مفاهيم أخرى كالتراث والكلية التاريخية، والاستمرارية والقطيعة. مفهوم الأيدولوجيا: وما يرتبط به كمفهوم التأويل والقراءة والموضوعية والحقيقة والواقع والاشعور والخيال. مفهوم الهوية: وما يتعلق به من مفاهيم كالأصالة والقومية والخصوصية"<sup>22</sup>.

لا حاجة بنا إلى التذكير ههنا، أنه ما إنّ يتمّ ذكر تلك المفاهيم حتّى تنصرف أذهاننا مباشرة إلى الباحث "عبد الله العروى"، وفعلاً، لقد وجد "عبد السلام بنعبد العالي" في هذا السياق، ومنّ خلال مرجعية عروية، الأدوات المعرفية والمنهجية الكافية للتحرر من أصالة مزيفة تُقدس التراث، فالاتكاء إلى مقومات الفكر التاريخي وحده كفيلاً بتحقيق تطور المجتمعات وبالتالي إخراجها من وضعها الوسطوي إلى وضع آخر صناعي، ذلك أنّ تقدّس التراث والماضي عبر رفع شعارات أنّه الأصل والوفاء له واجباً "يقيّ الذهن العربيّ حتماً مفصلاً عن واقعه مُتخلفاً عنه بسبب اعتبار الوفاء للأهل حقيقة واقعية مع أنّه أصبح حساً رومانياً منذ أزمان مُتباعدة"<sup>23</sup>. منّ جهته، "محمد عبد الجابري" وإنّ رفض نسبياً وجهة نظر "العروى"، في إهماله للتاريخ الفعلية على حساب كلية تاريخية، إلّا أنه يتشبّه بأهمية مُحاورَة التراث وجعله مُعاصراً لنا، ذلك أنّ القول لـ "الجابري" في مخطوطته "نحن والتراث": "إنّ الشعوب لا تستعيد في وعيها، ولا يُمكن أن تستعيد إلّا تراثها وما يتصل به"<sup>24</sup>.

بناءً على ما سبق، إنّ استراتيجية "عبد السلام بنعبد العالي" التي يُشكلها تواشج المرجعيات المتناقضة، تروم إلى تقويض النظرة إلى التراث التي تجعله وحدة متطابقة مع أفقنا الحاضر، أي جعل الحاضر يتطابق مع الماضي دون مراعاة الاختلافات،

موضوعات فلسفية، وحتّى إنّ اعترض البعض بما أصبح الأستاذ "العروى" مثلاً، يبحث فيه من مفاهيم كانت دوماً هي موضوعات الفلسفة المفضلة كمفهوم الدولة ومفهوم الحرية، فإنّ الأستاذ "العروى" يُجيبه مُنذ الصفحات الأولى لكتبه الأخيرة أنّه لا يطرق تلك الموضوعات من زاوية فلسفية، إنّ التفكير الفلسفيّ عندنا لا ينصبّ على موضوعات الفلسفة المعهودة وربما ان طرحنا السؤال الفلسفيّ على الفلسفة المعاصرة بصفة عامة وتساءلنا ما موضوعات الفلسفة؟ لما تلقينا جواباً ولما ألفينا فلسفة<sup>19</sup>.

بعد أنّ اتضح أنّه لا يُمكن رصد الانتاج الفلسفيّ بالمغرب، لا عن طريق حصر المؤلفات الفلسفية ولا عن طريق ضبط المواضيع الفلسفية، بحكم أنّ الفلسفة لا موضوع لها، إنّما شغلها الشاغل قراءة وتأويل جديد لتاريخها، حتّى الدراسات الإبستمولوجية التي اشتغل عليها مفكرو العرب المعاصرين، هي في أعين "بنعبد العالي" تتغذى من التاريخ وإعادة قراءة للمفاهيم الثابته في مُدونة التراث، منّ ثمة "يبدو أنّه لا يبقى علينا إلّا رصد المفاهيم الفلسفية المتداولة عندنا، تلك المفاهيم التي قد لا نعرّ عليها في الكتب التي تُقدم نفسها على أنّها انتاج فلسفيّ وقد نلّفها على العكس منّ ذلك عند مُفكرين يضعون أنفسهم خارج الفلسفة وعلى هامشها، نجدّها أساساً عند دارسيّ التاريخ والفكر الاجتماعي ولكن أيضاً عند بعض منّ علماء الاجتماع وأصحاب النقد الأدبيّ"<sup>20</sup>.

لقد اهتمدنا في الخطوة السابقة وإسوة بـ "عبد السلام بنعبد العالي"، إلى أنّ الفلسفة اليوم لا تنشغل بموضوعات معينة بقدر ما يكون بؤرة اهتمامها مُنصباً على نفسها وتاريخها، منّ ثمة إنّ مدار الاهتمامات الفلسفية عندنا تنصبّ على مفاهيم استراتيجية "ترميّ إلى مراجعة الفلسفة وقضاياها وإعادة النظر في التراث الفلسفيّ ولعلّ هذا هو يُفسر الأهمية التي يتخذها مفهوم التراث وما يرتبط به من مفاهيم كالتاريخ والهوية والخصوصية، وقد أدى هذا إلى توظيف مفاهيم اجرائية أخرى لتأويل ذلك التراث كمفهوم القراءة والأيدولوجيا، وما يرتبط

لذلك نذر جهده الفكريّ من أجل خلخلة هذا التطابق الموهوم ومن ثمة الكشف عن الهوية المتعددة، فالحاضر ليس حقائق مطلقة يُبلورها الماضي، بعدها يتساءل صاحبنا ههنا، عن مُساهمتنا في الفكر العالميّ والكوينيّ، وهي مُساهمة في أعينه ما تزال دون مستوى مساهمة أجدادنا<sup>25</sup>، من ثمة ولئن قُدر للفكر الكوينيّ أن يتعالى عن التصنيفات الثنائية الضيقة، العرقية والجغرافية والعقدية، لجهة أن الكونية والعالمية لا تحوز على أيّ هوية، ولا تُنافح عن أيّ أصلٍ إلا ضمن مدونة الفكر الكوينيّ، وبناءً عليه فإنّ "كلّ سؤال فلسفيّ لا مفر له اليوم من أن يجد نفسه منخرطاً في هذه الكونية، ولا بد له من أن يطرح على الفكر بما هو فكر كونيّ وأن يخرط في العالمية فليس هذا الانخراط أبداً وليد قرار تتخذه ذات سيكولوجية أو ثقافية وإنما هو قدر تاريخي يرمي بإنسان اليوم في الكون، وبالفكر في الكونية"<sup>26</sup>.

من هنا، كانت الحاجة ماسة لمراجعة نقدية لبرنامج التراث وتأويله من جديد للمساهمة في الفكر الكوينيّ، بيد أن تلك القراءة أسفرت عن موقفين أساسيين ومتعارضين، قراءة تروم إلى التشبث به وقراءة أخرى تسعى إلى الفكّك منه، وهذا ما سنحاول تناوله في الآتي .

### 3- التراث بين جدلية الاتصال والانفصال، أو كيف نستثمر التراث لتكوين فلسفة جديدة؟

غداً من المعلوم اليوم تلك المكانة المحورية التي تحوزها مسألة التراث في الفكر الفلسفيّ العربيّ وخاصةً بالمغرب، لجهة أنها طُرقت وما زالت تُطرق في مُلابسات سياسية وفكرية مُتنوعة، وفي كلّ مرة تكون الحاجة إلى طرح هذه المسألة على أرضية الدراسة والبحث والنقاش من جديد للبحث عن التأثيرات والاستمرارات، عن الاستقرار والدوام، وإذا كانت تُطرح بذلك الإلحاح الشديد فذلك لأنّ البحث في التراث هو في حقيقته بحثٌ عمّا "يُمكن أن يُساهم في إعادة بناء الذات العربية، وهي المهمة المطروحة في الظرف الراهن"<sup>27</sup>، ومن أجلّ القيام بهذه المهمة والحال هاته، تعددت القراءات واختلفت التأويلات، من ثمة "أصبح همّ الفكر هو إعادة قراءة تراثه لتجاوزه، إما بنبذه أو

بتملكه"<sup>28</sup>، ورغم أن مُفكرنا ههنا قد رفض تصنيف المفكرين المغاربة إلى صنفين متباينين، وقد وجد حجته في ذلك، لأننا نلمس لدى المفكر الواحد شرخاً وتمزقاً بينّ سعيه إلى إحياء الماضي و بينّ سعيه إلى الفكّك من قيوده والتخلص من أساره، إلا أن هذا لم يمنع صاحبنا ههنا من القول بصفة عامة إنّ "الفكر انتهج لتملك التراث الفلسفيّ استراتيجيتين متعارضتين: أولهما تسعى نحو البناء وتنظر إلى التراث الفلسفيّ على أنه منبع كلّ حقيقة، مهمة تاريخ الفكر من هذا المنظور، هي بعث نفس خالدة واسترجاع للهوية وإحياء للماضي، أما الاستراتيجية الأخرى فهي تهدف إلى تقويض التراث الفكري ولا تنظر إلى تاريخ الأفكار من وجهة نظر الحقيقة، لا تنظر إليه كمصدر حقائق وإنما كعائق، من هذا المنظور لا يسأل التراث الفلسفيّ عمّا اختزن من حقائق بل أساساً عما يحجب ويستتر"<sup>29</sup>.

لقد عمد "عبد السلام بنعبد العالي" إلى المزاوجة بين تلك المواقف المتباينة، فيجد القارئ لنصوصه حضوراً مكثفاً للكثير من المرجعيات المختلفة دون أن يُحسّسنا بتدافعها أو تناقضها، فمن جهة يرى أنّه لا مانع من التنقيب والحفر في التراث وجعله يتجاوب وتطلعاتنا الراهنة، جعله من جهة أخرى يرفض النظرة السكونية المتحجرة التي تنطلق من فكرة الوفاء للتراث، تلك النظرة التي تجعل منه أصلاً مقدساً خازناً للحقائق حائراً لها، وإنّ كان يرمي من وراء نسج هذه المزاوجة تقويض أسس التطابق الموهوم وتفجيراً للهوية مُتعددة، فذلك لأنّه يسعى إلى الكشف عن الطريقة التي بمقتضاها "يُمكن للفكر العربيّ المعاصر أن يستعيد ويستوعب الجوانب العقلانية في تراثه ويوظفها توظيفاً جديداً في نفس الاتجاه الذي وُظفت فيه أوّل مرة، اتجاه مُحاربة الإقطاعية والخنوصية والتواكلية وتشبيد مدينة العقل والعدل، مدينة العرب المحررة"<sup>30</sup>.

من هنا، كانت الحاجة ماسة إلى مراجعة بعض المفاهيم، وتحقيق بالذكر ههنا والحالة هته، لقد أدى تحديد الوظيفة الجديدة للتراث، إلى إعادة النظر والقراءة في العديد من المفاهيم كمفهوم الهوية ومفهوم الاختلاف، الأمر الذي جعلنا نتساءل عن الوظيفة الجديدة التي تُعرى إليها الآن؟

ثالثاً- الهوية والاختلاف عند بنعبد العالي: التراث من الوحدة والتطابق إلى التعدد والتمايز.

منذ البداية يرسم لنا "عبد السلام بنعبد العالي"، المرامي التي يهدف إليها من وراء الاشتغال وتوظيف هذه المفاهيم كالهوية والاختلاف وغيرها من المفاهيم، هو معرفة الكيفية التي تطرح بها مسألة التراث عندنا الآن في العالم العربي، لذلك نجد أنه يتساءل ضمن أي تصور عن الزمان التاريخي تطرح هذه المسألة؟ وداخل أية فلسفة عن الهوية و الاختلاف؟ وضمن أية فلسفة عن الوعي ندرجها؟

يبد أن الأمر يتعلق ههنا، بـ "الصياغة النظرية لمسألة التراث عندنا، فنحن إذ ندرس التراث نريد منه أن يكون عامل تأصيل وخصوصية حضارية، كما نريد تملكه دون أن يمتلكنا واستلهامه دون أن يستلبنا، من هنا يتبلور ذلك الإشكال الذي اعتدنا أن نلخصه عندما نقابل التراث بالمعاصرة، فماذا يفترض هذا التقابل؟<sup>31</sup>.

لمعالجة هذه المسألة، يرى "عبد السلام بنعبد العالي"، وهو في هذا المنحى من الفهم يتحرك في أفق هيدغري ويسير على منواله، فهو لا ينظر إلى التاريخ بوصفه صيرورة يفصل فيها حاضر متحرك الماضي عن المستقبل ويتجاوزه - كما يذهب إلى ذلك "هيجل" -، بل إنه التاريخ الذي ينتهض على مفهوم الحضور، من ثمة "ينظر إلى الماضي على أنه ما نفك يمضي وعلى الحاضر أنه ما يفتأ يحضر، بهذا المعنى لا يكون التراث وراءنا ونحن لا نكون على مسافة قريبة ولا على مسافة بعيدة من أصولنا الفكرية، بل إن هذه الأصول تكون معاصرة لنا ومن هذا المنظور ينهار التقابل بين الأصالة والمعاصرة"<sup>32</sup>.

إن هذا الموقف الفلسفي ينقلنا إلى أفقه الإشكالي الخاص، ومكمن الاشكال يتمثل في ورود لفظ المعاصرة، التي ينبغي علينا فهمها ههنا خارج ذاكرتها الاصطلاحية، إذ هي لا تفهم هنا بمعاني المثل المباشر وبقيم الحضور الواعي، إن "التراث يكون حاضراً زمانياً غائباً وعباً، أو لنقل، إن حضوره لا يتم كذاتية متعينة وإنما في اختلافه وانفصاله وتباعده، يتعلق الأمر، بتصدع الكائن وخلخلة كل تطابق وتعدد كل وحدة"<sup>33</sup>.

من هنا، تقوم أطروحة مفكرنا "عبد السلام بنعبد العالي"، إلى الدعوة إلى الانفصال عن الطرح التقليدي، الذي يصنع من التراث سنداً ويجعل منه مركزاً يقصي جميع الأصوات الأخرى من خلال الارتداد إليه واستحضاره دائماً بوصفه نموذجاً للفهم ومعياراً للمعنى، ومن هنا أيضاً "ارتبط حديثنا عن التراث بفلسفة متوحشة عن الهوية ترفض الآخر وترمي به في خارج المطلق، ولا تنظر إلى الاختلاف والسلب إلا ك لحظة في بناء الهوية والآنا، وربما أن الألوان لإقحام الانفصال في وجودنا ذاته والنظر إلى التراث لا في صيغته المفردة، بل في غنائه وكثرته والاصغاء لأصواته المتعددة لإنقاذه من ميتافيزيقا الذاتية وعدم استغلاله لتركية وهما بالخلود"<sup>34</sup>.

تأسيساً على ما سبق قوله، يكشف لنا "عبد السلام بنعبد العالي" عن رفضه لتلك النظرة الاختزالية للتراث، وهي نظرة تقول وترمي إلى استعادة الماضي بإحداثياته الزمانية والمكانية، بل علينا الانفتاح على ألوانه المتعددة والاصغاء لأصواته المختلفة، ذلك أن هذا الاجراء "يمنعنا من النظر إليه من خلال نزعة إرادية تقرر ما ينبغي أخذه منه وما يلزم تركه فالأمر لا يتعلق بدخول متحف لاقتناء أشياء الجميلة ولا باستعراض أحقاب للوقوف عند لحظة المشقة، بل إنه يعني على العكس من ذلك، بحيث لا يكون التراث وعاء نغرف منه ما يلائم حاضرننا ولا نلجأ إليه لاسترجاع حقائق منسية وحياء قيم غابرة، وإنما نعيد انتاج تلك الأصول لمتابعة نشأتها"<sup>35</sup>.

وبالجملة، يتضح لنا أن مسألة التراث لا تتلخص في النظر إليه بوصفه تماثلاً وتكراراً، بل إن الأمر يتعلق ههنا، بما يُسميه "بنعبد العالي" بـ "ثوابتنا الفلسفية"، التي تنتهض وتقوم على مفاهيمنا عن اللغة، وعن التاريخ، وعن الهوية، من ثمة يتضح لنا أنه أن الألوان لـ "إعادة الصياغة النظرية لمسألة التراث تفرض علينا قبل كل شيء إعادة النظم في المفاهيم التي رسخها التراث الميتافيزيقي وأزج بها لذاته وخصوصاً مفهوم اللغة وتوليد المعاني ومفهوم الهوية ومفهوم التاريخ"<sup>36</sup>.

بخصوص مسألة الهوية والاختلاف، إن ما يُدينه "بنعبد العالي" بشدة ذلك الطرح الساذج الذي يتصور الهوية كانسجام ويرى

في الاختلاف ككتابين بين وحدات مُغلقة، من ثمة جعل الهوية في جهة والاختلاف في جهة أخرى يقبّع على طرف النقيض، ثم ولعن قُدر لها -الهوية- أنّ تُقدّم دائماً بوصفها تكتسي طابع الوحدة، فذلك لا يعني "أنّ هذه الوحدة هي الفراغ الذي يدوم ويستمر في انسجام فاطر بعيداً عن كلّ علاقة، فإن كانت الهوية تُرد إلى الوحدة، فإنها الوحدة التي هي اختلاف وتغاير، (من ثمة) لم يُعد بالإمكان طرح مسألة الهوية بعيداً عن مسألة الاختلاف"<sup>37</sup>.

من هنا، إنّ ما يتوسط آفاق الهوية والاختلاف، هو مدارات التنوع والتمايز، وإنّ كان هذا التنوع ليس بإمكانه بلوغ حدّ الاختلاف الجواني ولا إدراك التطابق العيني، فإن وجوده -التنوع- شرط ضروري لإثبات الهوية والاختلاف على حد سواء، من هنا فالهوية يجب أنّ تُفهم خارج أسوار التماثل والتطابق، كما لا يؤول الاختلاف إلى التعارض، هكذا إذن "لا تقوم الهوية إلا في معارضتها للآخر، ولا معنى للوحدة إلا كتركيب، ولا للتطابق إلا كاختلاف"<sup>38</sup>، ولنا شاهد آخر اقتبسناه من مصنفه العلامة "ميثولوجيا الواقع" يقول فيه "عبد السلام بنعبد العالي": "لا يغدو الاختلاف حينئذ التصريح بتميز وتمايز مطلق يفصل الذات عن العالم المحيط بها ولا يعتبر خروجها عن ذاتها أساساً لوجودها وإنما اقحاماً للآخر في الذات نفسها، هنا يُوضع الاختلاف داخل الهوية إنّ صح التعبير"<sup>39</sup>.

إنّ المثالم في ذلك النصّ يُدرك بجلاء أنّ الذات لا تنتهض في تعارضها مع الآخر وإنما في اختلافها معه، على أنّ لا يُفهم الاختلاف هنا بوصفه تعارضاً، بقدر ما يعني حركة داخلية تُبعد كل طرف عن الطرف الآخر ثم تُقرب بينهما بفعل ذلك الابتعاد نفسه، فالابتعاد هنا لا يعني الانفصام وقطع للصلة بين الطرفين، بل إنّّه على خلاف ذلك، من ثمة "يتعلق الأمر ببعد إيجابي بين المتخالفين: إنّ البعد الذي ينقل أحدهما نحو الآخر من حيث هما مُختلفان"<sup>40</sup>.

وبالحصيلة، فنحن -حسب "عبد السلام بنعبد العالي- إزاء مقارنة جديدة تُوحد ولا تُصالح بين الأضداد، بل تعرضها لنا متبينة مجتمعة في ذات الحضور، أمام هوية لا تؤول إلى التماثل

والتطابق، وأمام اختلاف لا يرتد إلى تناقض، من هنا وأمام هذا الوضع يتساءل مُفكرنا أي معنى يظل للهوية؟ ألا يصح القول أنّ هذه الهوية في حقيقتها لا تتمتع إلا بوجود ظاهري مُفتعل؟، في معرض الإجابة عن تلك الأسئلة، يرى "بنعبد العالي" أنّ الذاتي والمشابه ليست سوى أوهام أو هُنا بها العود الأبدي، غير أنّ العود الأبدي لا يُوحى بعودة الأمور ذاتها وردم لجميع الاختلافات، بل على خلاف ذلك هو حركة وصيرورة، تُتيح إمكانيّة بروز التمايز والاختلاف.<sup>41</sup>

#### 4- على سبيل الاختتام:

وبالجملّة، لقد قلنا سابقاً، أنّ الهدف الذي يتوخاه "عبد السلام بنعبد العالي" من وراء الاشتغال على مفاهيم الهوية والاختلاف... الخ، من أجل غاية أسمى وأشرف وهي مقارنة الطريقة التي بمقتضاها يتم تناول مسألة التراث في العالم العربي، وتأسيساً على ما سبق من المستندات استهدى صاحبنا ههنا، إلى ضرورة العودة إلى التراث ومفاهيمه، شريطة أنّ لا تُفهم تلك العودة بالمعنى الذي يؤول إلى التماثل والتطابق والذوبان بل بمعناه الذي يُتيح إمكانيّة تفجير الاختلاف والتمايز والتعدد والمنظورية، من هنا لا يُمنع الانفتاح على التراث والانصات له سواء تعلق الأمر بالتراث الغربي أو العربي واستحضاره لجعله مُعاصراً لأفقتنا، لجهة أنه لا يُحيل إلى الثبات والبقاء والدوام، بل على خلاف ذلك، إلى الحركة والصيرورة والانتقال، من ثمة يغدو التراث عامل تأسيس وخصوصيّة يُسهّم في بناء الذات العربيّة ويُسهّم في إنتاج فكر عربيّ أصيل يُمكن من المساهمة في الفكر الكوني.

<sup>1</sup> - عبد السلام بنعبد العالي: في الانفصال، دار توقيال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى، 2018، ص20.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>4</sup> - عبد السلام بنعبد العالي: ضد الراهن، دار توقيال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى، 2005، ص7.

<sup>5</sup> - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>6</sup> - المصدر نفسه، ص5.

- 7- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 8- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 9- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 10- المصدر نفسه، ص8.
- 11- عبد السلام بنعبد العالي: في الانفصال، مصدر سابق، ص 20.
- 12- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 13- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 14- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 15- عبد السلام بنعبد العالي: التراث والهوية، دراسات في الفكر الفلسفي بالمغرب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، الطبعة الأولى 1987، ص 07.
- 16- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 17- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 18- المصدر نفسه، ص08.
- 19- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 20- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 21- المصدر نفسه، ص09.
- 22- عبد السلام بنعبد العالي: آفاق الفكر الفلسفي بالمغرب، ضمن أعمال المؤتمر الفلسفي العربي "الفلسفة في الوطن العربي المعاصر"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت -لبنان، الطبعة الثانية، 1987، ص 270.
- 23- المصدر نفسه، ص271.
- 24- أنظر: محمد عبد الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، 1980، ص 66.
- 25- عبد السلام بنعبد العالي: الفكر في عصر التقنية، افريقيا الشرق - المغرب، 2000، ص ص 97-100.
- 26- المصدر نفسه، ص101.
- 27- عبد السلام بنعبد العالي: سياسة التراث، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الأولى، 2011، ص 18.
- 28- عبد السلام بنعبد العالي: آفاق الفكر الفلسفي بالمغرب، مصدر سابق، ص269.
- 29- المصدر نفسه، ص270.
- 30- المصدر نفسه، ص 274.
- 31- عبد السلام بنعبد العالي: هيدغر ضد هيغل، التراث والاختلاف، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2006، ص ص 12-13.
- 32- المصدر نفسه، ص13.
- 33- المصدر نفسه، ص14.
- 34- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 35- المصدر نفسه، ص15.
- 36- المصدر نفسه، ص16.
- 37- المصدر نفسه، ص84.
- 38- المصدر نفسه، ص86.
- 39- عبد السلام بنعبد العالي: ميثولوجيا الواقع، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، الطبعة الأولى، 1999، ص 19.
- 40- عبد السلام بنعبد العالي: هيدغر ضد هيغل، التراث والاختلاف، مصدر سابق، ص 90.
- 41- المصدر نفسه، ص ص 92-93.